الفصل الثالث

ابن إياس ومعاصروه

ابن إياس ثالث المؤرخين الذين تداولوا الزعامة فى حلبة التأليف فى التاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، واسمه محمد بن أحمد بن إياس المصرى الحنفى[1] ، ومولده بالقاهرة سنة ١٤٤٨ م ، إحدى وعشرين سنة قبل وفاة أبى المحاسن . وابن إياس شبيه بأبى المحاسن من حيث أن كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، على أن ابن إياس كان أقدم عرقاً فى المجتمع المملوكى ، فبينما لا ندرى من أصل أبى المحاسن سوى أخبار أبيه وأمه منذ مجيئهما إلى مصر فى عهد أستاذهما السلطان برقوق ، إذا بنا نعرف الجدّ الأكبر لابن إياس ، واسمه إزدمر العمرى الفاصرى أبو ذقن ، الشهير بالخازندار . وكان إزدمر من أمراء الدولة

---

(١) أورد بروكلمان Brockelmann : Gesch. der Arab. Litt. II. p. 275) اسم ابن إياس كاملا كالآتى : " أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين (أو شهاب الدين) الناصرى الجركسى الحنبلى " ، وكرّر نسبته إلى الحنابلة فى ملحقه للكتاب المتقدم (Ibid : Supp. II. P. 205) ، وهو خطأ يبينه أن حنبليا لم يكن بين المعروفين من مشايخ ابن إياس .

المملوكية الأولى زمن السلطانين حسن وشعبان، وتولى مدة حكم كل منهما وظيفة أمير سلاح ، ونال فى عهد ثانيهما حظوة وثقة خاصة ، فتقلب فى نيابات صفد وطرابلس وحلب ، واختير أواخر أيامه لنيابة دمشق ، ثم عاجله الموت وهو فى الطريق إليها سنة ١٤٦٦م ولدينا أيضاً معلومات قليلة بصدد جدّ ابن إياس لأبيه ، واسمه إياس الفخرى ، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، وقد تأمّر سريعاً ، وتولى وظيفة الدوادار الثانى زمن السلطان فرج ابن برقوق .

أما والد ابن إياس ، واسمه شهاب الدين أحمد ، فكان على قول ابنه من مشاهير أولاد الناس ، أى أنه من أفراد تلك الفرقة المملوكية التى ضمت أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة ، حيث جرت العادة أن يُعطى للواحد منهم إقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى رعاية لسلفه ، بشرط أن يندمج فى الرديف السلطانى ، ويكون صالحاً للخدمة فى إحدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم[1] . وذكر ابن إياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من المحببين إلى كثير من أمراء الدولة وأربابها ، وأنه عاش نحواً من أربع وثمانين سنة ،

---

(١) راجع القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥) ، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مقالة ابن إياس .

وأنه أنجب فى حياته الطويلة خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث ، بقى منهم بعد وفاته سنة ١٥٠٢ م بنت وصبيان ، أحدهما محمد بن إياس نفسه ، وثانيهما الجمالى يوسف . أما البنت فلعلها هى التى مات عنها زوجها الأمير قرقماس المصارع ، وهو من أمراء العشرات زمن السلطان قايتباى ، ووظيفته أمير آخور رابع فى البلاط السلطانى ، وكانت وفاته سنة ١٤٧٢ م فى وقعة البيرة على نهر الفرات ، حيث ظفر الجيش المملوكى بقيادة الأمير يشبك بن مهدى بجيوش حسن الطويل (أوزون حسن) ملك التركمان المعروفين باسم الشاة البيضاء (Ak Koyunlu) . وأما الصبى الجمالى يوسف فكان بالزردكاشية (هندسة المدفعية) ، على عهد السلطان قانصوه الغورى ، ويظهر أنه كان خبيراً بفنه ، وبيده وظيفة رئيسة فى عمله .

يتضح من هذه الإشارات المنوعة أن ابن إياس نشأ فى وسط مملوكى بحت ، وأنه متّ إلى بعض رجال الدولة المملوكية فى عصر قايتباى والغورى بصلة المصاهرة والقرابة . غير أنه مما يدعو إلى العجب أن أحداً من معاصريه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وأن مبلغ ما يعتمد عليه لإنشاء ترجمة حديثة لهذا المؤرخ الكبير لا يعدو نتفاً مبعثرة فى كتبه التى ألفها ؛ وعبثاً يرود الباحث غير ذلك من الكتب المعاصرة والمتأخرة ، كمؤلفات الشيخين جلال الدين عبد الرحمن السيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى ،

وهما من أساتذة ابن إياس بتقريره ، ومؤلفات السخاوى والغزّى والأعظمى والبوريني واليمنى والمحبّى والمرادى ، وهم أصحاب كتب التراجم والسِيَر للقرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لابن إياس لا يعجز الكاتب أو يعييه عن محاولة الكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوبة بربح وإن جاء سلبياً ، إذ يصبح اعتماده مقصوراً على ما هنالك من إشارات المؤلف عن نفسه ورجال عصره فيما ألف من كتب ، فيستشف منها موقفه من الحوادث ، ويسبر بها دخائل شخصيته وأخلاقه . ومن تلك الإشارات الخاصة بهوية ابن إياس أنه نشأ كأبيه شهاب الدين أحمد ، وكأبى المحاسن كذلك ، فى فرقة أولاد الناس[1] . وحجّ ابن أياس سنة ١٤٧٧ م دون أن يقوم على وظيفة معينة فى الركب المصرى ، كتلك التى أسندت إلى أبى المحاسن فى حجته ، على أنه شهد ما لقيه الحاج ذاك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة ، بسبب ما وقع وقت ذاك بين السلطات المملوكية وبعض المكيين ، وجاء وصفه لما حدث برهانا على ما هنالك من دَخَن دائم وكره متبادل ، بين ممثلى السلطان وذوات الحجاز وأمرائه ، طوال عهد المماليك .

وظل ابن إياس معظم حياته متمتعاً بإقطاع وافر ، يرجح

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٤ ، ٤٧ .

أنه من لدن السلطان الغورى ، فعاش عيشة راضية ، واشتغل بالكتابة والتأليف فى التاريخ ، ونَظَم الشعر والزجل والمواويل والموشحات والمزدوجات ، فى مناسبات شتى .

على أن منظومات ابن إياس توجب الالتفات : فمنها ما هو مدح أو رثاء لسلطان أو سلطانة أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة بالشفاء من مرض أو النجاة من محنة لعين من أعيان الدولة ، ومنها ما هو نقد أو تعقيب على بعض الأعمال الحكومية . فهل نستخلص من تلك القرائن ، كما فعل مارجوليوث (Margoliouth) ، أن ابن إياس تولّى وظيفة مؤرخ الدولة (Historiographer) فى الحكومة المملوكية ، برغم أنه لم يذكر شيئاً من ذلك على التعيين فى كتبه ، وبرغم أن وظيفة بهذا الاسم لم تُعرف فى نظام المماليك ؟ أو نقول بأنه غدا من رجال الأدب المشغوفين بالعيش على هامش الحاشية السلطانية ، المتصلين ببعض رجالها كأبيه من قبل ، وإنه اعتمل نظم الشعر اجتذاباً للشهرة ، كلما واتته فرصة ؟ أو نرجح أنه أراد لنفسه مع السلطان محمد بن قايتباى مركزاً مشابهاً لمركز العينى مع السلطان برسباى ، أو لمركز أبى المحاسن مع السلطان المرجوّ محمد بن جقمق . على أنه مهما يكن من ترجيح أو ميل لهذا أو ذاك أو غيره مما يحتمل أن يكون وظيفة لابن إياس فى المحيط المملوكى ، فالواضح من أشعاره هذه ، ومناسباتها الخاصة والعامة ، أنه عاش فرداً متتبعاً عن كثب حوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وليس ذلك بصفته

مؤرخاً مصغياً بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلا حياً حساساً بما يجرى فى دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال ؛ وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد ضرائب المشاهرة التى ألغاها السلطان الغورى أواخر أيامه ، ومرثيته التى قالها فى وقعة الفتح العثمانى لمصر .

وحدث لابن إياس فى منتصف سنة ١٥٠٨ م ما عكّر عليه صفو حياته المطمئنة ، إذ تأزّمت أحوال السلطان الغورى لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد إلى إخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن إقطاعاتهم ، وقطع الرزق الأحباسية والأوقاف عن أهلها ، وأطلق لمماليكه العنان ليهاجموا أصحاب تلك الإقطاعات فى بيوتهم ، ويأخذوا منهم مناشيرها غصباً وضرباً ، إذا احتاج الأمر إلى الضرب والإحراق و "البهدلة" . ونال ابن إياس من تلك السكارثة ما نال غيره من أبناء طبقته ، فذهب عنه إقطاعه الوافر إلى أربعة من المماليك عكاتبات سلطانية ؛ غير أنه لم يبق بغير إقطاع مدة طويلة ، إذ وقف للسلطان الغورى أوائل سنة ١٥١٠ م بقصة يشكو فيها حاله ، وقدمها إليه وهو فى طريقه للعب الكرة بميدان القلعة ، فاستجاب السلطان شكاوته ، وردّ عليه إقطاعه ؛ ومدحه ابن إياس من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد .

غير أن ابن إياس لم يكن من المعجبين حقاً بالسلطان الغورى

وأعماله ، يشهد بذلك ما كتبه بعضده بعد وفاته فى كثير من المناسبات بكتابه الكبير فى التاريخ ، واسمه بدائع الزهور فى وقائع الدهور . وهذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثمانى ، هو الذى جعل ابن إياس خليقاً بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين فى مصر ، أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى . وبدأ ابن إياس تأليف كتابه هذا حوالى سنة ١٤٩٣ م ، وظل معنيا به حتى أواخر أيامه ، فجاء فى أحد عشر جزءاً ، وكان فى عزمه أن يضيف إليه ليكتمل اثنى عشر جزءاً[1] ، لولا موته سنة ١٥٢٤ م . ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخاً بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هى أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن إحدى هذه النسخ الناقصة نُشر الكتاب فى القاهرة ، فجاء بعيداً عن الأصل ، خلواً من أهم جزء من أجزائه[2] .

---

(١) تملك مكتبة فاتح باستامبول أربعة أجزاء غير متتابعة من هذا الكتاب وهى بخط المؤلف ، وفى حردها (Colophon) أنه انتهى من كتابة الجزء الرابع أوائل سنة ٩١٠ هـ (١٤٩٥م) ، ومن الخامس أواخر تلك السنة الهجرية نفسها ، ومن الثامن أواسط سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) ، ومن الحادى عشر أواخر ٩٢٨ هـ (١٥٢٢م) . ووعد ابن إياس فى نفس الصفحة التى وردت بها الإشارة الأخيرة أنه سوف يقوم على كتابة الجزء الثانى عشر ، وهو مالم يكتبه بسبب وفاته ، أو أنه كتبه ولم يعثر عليه أحد حتى الآن .

(٢) أدركت هذا النقص جمعية المستشرقين الألمان باستامبول ، فنشر =

ومن مؤلفات ابن إياس فى التاريخ كذلك كتاب عقود الجمان فى وقايع الأزمان ، وهو مختصر مستقلّ لتاريخ مصر ، وليست له أية علاقة بكتابه الكبير أو بالنسخ المختزلة منه ، ثم كتاب نزهة الأمم فى العجائب والحكم ، وهو تأليف صغير فى تاريخ العالم ، وكتاب مرج الزهور فى وقائع الدهور ، وهو مؤلف شعبى فى قصص الأنبياء والرسل ، وربما كان لغير ابن إياس من المؤلفين ، برغم إشارته هو لبعض محتوياته فى الفصل السابع من الجزء الأول من بدائع الزهور . ولابن إياس كذلك كتاب نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ، وهو كتاب فى الفلك والهيئة وتركيب الكون (Cosmography) ، وآثار مصر الفرعونية وملوكها . وذكر ابن إياس فى مقدمته لهذا الكتاب أنه قصد بتأليفه أن يجمع فيه أغرب ماسمع وأعجب ما رأى ، ولا سيما " عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة فى البربى " ؛ وكان فراغه منه سنة ١٥١٨ م ، وكثيراً ما استمدّ منه علماء أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

على أن شهرة ابن إياس تستند كلية إلى كتابه الأول فى التاريخ ، إذ صار به عمدة المؤرخين فى أحوال دولة المماليك وأخبارها مدّة الطور الأخير ، والمرجع الرئيس لحوادث فتح

= الأستاذ كاله Kahle ، والدكتور محمد مصطفى ، والمرحوم سوبرنهيم (Sobernheim) ، ثلاثة أجزاء جديدة من هذا الكتاب .

العثمانيين لمصر ، فى أسلوب بديع ؛ ولذا ميزه مارجوليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين فى مصر وغيرها بقوله : " إن أسلوبه فى الكتابة والتأليف ، ونمطه فى التفكير ، ينمّ كل منهما عن فردية واستقلال فى الرأى قلّ أن يقربه فيه معظم المؤرخين(١) " .

والواقع أنّ ابن إياس كان على جانب من القدرة فى النقد ، فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع والوفيات على وتيرة أغلب السالفين من كتاب التاريخ ، بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويعقب ويفلسف ، مع شىء من القسوة فى الحكم ، والجرأة فى التقدير ، والمغالاة نوعا فى التصوير . وربما شجعه على ذلك اتصاله ببعض أعيان البلاط السلطانى فى عهود مختلفة ، كالأمير تمراز الأنابك ، والأمير أقبردى الدوادار الكبير ، وكلاهما من رجال عصر قايتباى ، وكأبى بكر بن مزهر ، ووالده البدرى محمد ، والقاضى محمود بن أجا ، وهم ممّن شغل وظيفة كاتب السرّ فى الدولة ؛ وهذا فضلا عن صلته بأخيه الجمالى يوسف ، الذى أمده بما جرى بالقلعة من أخبار ، ولا سيما أخبار المدفعية التى عنى ابن إياس بتدوينها والإشارة إلى إهمالها على عهد الغورى

أما عن أخلاق ابن إياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه ، ما دام الموجود من كتب المعاصرين والمتأخرين لا ينبئ عنه بشىء ألبتة . على أنّ كتبه التى ألّفها ،

(١) انظر (Margoliouth : Lectures On Arabic Historians P. 150)

وملاحظاته التي أودعها إياها عن نفسه وحوادث عصره ورجاله ، تدلّ على الكثير من كنه شخصيته الكبيرة : فضخامة مؤلفاته برهان على أنه ظلّ طول حياته مجداً فى الكتابة ، ودؤوبه على تدوين الحوادث يوماً يوماً وشهراً شهراً فى الأجزاء المعاصرة من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق ، وقسوته فى الحكم على الناس تخبر بعلو مستواه الخلقى ، وتناوله الحكم العثمانى فى مصر بالنقد والسخرية أحياناً لإهمال رجاله مصالح المصريين — وذلك برغم ما أحاط السيادة العثمانية فى القاهرة من رهبة وخشية — يعطيه مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين . ومن يدرى ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثمانى هو السبب فى خفاء ترجمته من كتب التراجم .

ولابن إياس معاصرون أربعة من المؤرخين ، وهم السيوطى ، وابن خليل ، وابن طولون الدمشقى ، وابن زنبل الرمال . ولكل من أولاء فضل معلوم وسهم ظاهر فيما تجمّع للتاريخ المصرى من تراث محفوظ ؛ وإذا لم يبلغ أحدهم مبلغ ابن إياس ، أو يقربه فى المقدرة على التأليف الضخم فى التاريخ ، فذلك راجع إلى أن ابن إياس قصر نفسه على الكتابة فى ذلك الفرع وما يتصل به فقط (وهذا عدا نظم الشعر أحياناً) ، على حين أن معاصريه أولئك اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات . ومثل ذلك السيوطى صاحب الأخبار الطوال فى أشتات العلوم

فى عصره ، فإنه لم يترك ميداناً من ميادين المعرفة دون أن يُجرى فيه قلمه ، وهذا فضلاً عن تدخله فى بعض المسائل العامة فى عصره.

وُلد جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى ، سنة ١٤٤٥م بالقاهرة ، من أسرة ينتهى أصلها إلى شيخ من أهل الحقيقة والتصوف اسمه همام الدين الخضيرى — نسبة إلى محلة الخضيرية[1] ببغداد . وجاء هذا الشيخ إلى أسيوط ، وعاش بها زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، وأقامت أسرته بها جيلا بعد جيل ، وأخرجت رجالا نابهين فى المجتمع الأسيوطى فى العصور الوسطى ؛ فمنهم نائب الحكم (القاضى) ، والمحتسب ، والتاجر ، والمتموّل الخيّر ؛ ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصرى إبان قيامه على إخماد ثورة الأحدب بالصعيد سنة ١٣٥٣ م ، فى عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد ، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والخانقاه المعروفين باسمه بسويقة منعم فيما بين الصليبة والرميلة بالقاهرة الحالية[2] . أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من

(١) يظهر أن هذه النسبة ليست بنجوة من الشك ، على الرغم من أن السيوطى نفسه (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥) هو الذى رجحها . ذلك أنه كان بأسيوط وبالقاهرة كذلك موضع اسمه الخضيرية زمن السيوطى ، وربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب إرجاع أصله إلى جهة بعيدة عظيمة الشأن ، لاسيما أنه جهد فى أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك إنه أنصارى جعفرى الأرومة ، وإن جده من أم شريفة النسب .

(٢) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٣١٣ ، ٤٢٠ ؛ والسيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

أقام من تلك الأسرة بأسيوط ، إذ انقطع من دون رجالها جميعاً لطلب العلم والتعليم ، ورحل من أجل ذلك فى حداثته إلى القاهرة ، وأفاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمير شيخو ، فتولى درس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بجامع ابن طولون ، وألف كثيراً فى الفقه والنحو ، وتوفى فى عشر الخمسين ، سنة ١٤٥١ م ، ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين[1] .

وكانت والدة عبد الرحمن أم ولد تركية ، أنجبته وأبوه بالغ فى السن مبلغ النضج ، فجاء عبد الرحمن ناضجاً من يومه ، على قول الإخصائيين فى علم الأجناس . وكأنما توسّم فيه والده شيئاً من ذلك ، إذ قرّت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على الخمسين ، فعنى بتعليمه أشد عناية ، وحفظه جزءاً كبيراً من

(١) ترجم السيوطى لأبيه فى كتابه حسن المحاضرة (ج ١ ، ص ١٥٥ ، ٢٠٨ — ٢٠٩) ، وفى بغية الوعاة فى طبقات النحاة (ص ٢٠٦ — ٢٠٧) . والسيوطى نفسه غنى بمترجميه المعاصرين والمتأخرين والمحدثين ، إذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية فى حسن المحاضرة (ج ١ ، ص ١٥٥ — ١٦١) ، ترجمة فى كل من السخاوى والشعرانى والغزى ، والبوريني وابن العماد الحنبلى وابن إياس ، وعلى مبارك باشا ودائرة المعارف الإسلامية وفيليب حتى . ويوجد فى ابن طولون الدمشقى (الفلك المشحون ، ص ٦) إشارة إلى ترجمة ذاتية أخرى للسيوطى فى كتابه بغية الوعاة ، غير أن المطبوع من هذا الكتاب لا يشمل ترجمة له ألبتة . وذكر اليمنى (السنا الباهر ، ص ٧٧) أن للسيوطى كذلك ترجمة ذاتية ثالثة فى كتاب له اسمه التحدث بنعمة الله تعالى ، وهذه عدا ما هنالك من تراجم أخرى بقلم تلميذيه الشاذلى والداودى .

القرآن ، واستصحبه أكثر من مرة إلى مجلس ابن حجر فى الحديث . وغدا عبدالرحمن محظوظاً كذلك فى أوصيائه ، إذ لحظوه برعايتهم ونظرهم ، ونجحوا فى تقريره على وظيفة الجامع الشيخونى بعد وفاة أبيه ، ولذا نشأ يتيماً ناعم البال .

واستطاع عبد الرحمن أن يختم القرآن ، وهو دون الثامنة من عمره ، فدل بذلك على ذاكرة قوية وحافظة واعية . ثم أخذ فى طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع أو يتعاظمه فن ، إلا الحساب فإنه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته ، وإلا المنطق فإنه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه . أما ماعدا ذلك من العلوم ، كالتفسير والحديث والفقه ، والنحو والمعانى والبيان والبديع (على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة) ، وأصول الفقه والجدل ، والتصريف والإنشاء والترسل ، والفرائض والقراءات والطب ، فالسيوطى نفسه قال إنه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة فى الكمال ، وإنه رزق التبحر فى السبعة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم — فضلا عمن هو دونهم علماً وزمناً — ، وإنه اخترع علم أصول اللغة ورتبه ، وإنه وصل إلى مرتبة " المجتهد المطلق " فى الحديث والفقه والعربية باجتماع " آلات الاجتهاد " كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب فى أية مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدر على ذلك

كله تماماً فى غير عناء . ولا غرو فى ذلك مادام أن السيوطى نفسه قال مرة لشيخه السخاوى وهو يحاوره نظما : " علمى كبحر من الأمواج ملتطم "

بلغ عبد الرحمن السيوطى ذلك المقام الزاخر من العلم — مع المباهاة العريضة بكيفه وكمه لديه — بعد حياة دراسية طويلة بالقاهرة ، وأسفار كثيرة فى البلاد المصرية وغيرها . وتفصيل ذلك بتقريره أنه درس على ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد ، وأنه سافر من أجل ذلك إلى مراكز العلم بدمياط والإسكندرية ، والمحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج وجاور سنة كاملة . وقد تجمعت لديه أثناء ذلك كله براءات وشهادات وإجازات كثيرة ، أولها إجازة بتدريس اللغة العربية سنة ١٤٦١ م ، وعمره وقتئذ سبعة عشر عاماً ؛ ومن المعروف أنه بدأ التأليف تلك السنة بكتاب فى شرح الاستعاذة والبسملة .

على أن السيوطى لم ينصرف إلى تدريس اللغة العربية على ما يظهر ، بل باشر تدريس الفقه بالجامع الشيخونى الذى لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ؛ وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه البلقينى سنة ١٤٦٥ م . ثم تصدى السيوطى للإفتاء وإملاء الحديث ، بجامع ابن طولون سنة ١٤٦٧ م ؛ وأضيف إليه تدريس الحديث ووظيفة الإسماع بالخانقاه الشيخونية سنة ١٤٧٢ م ، بمساعدة الأمير إينال الأشقر ؛ كما تولى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التى

تقع بباب القرافة الحالية ، بعناية بلديِّه أبي الطيب السيوطي
وبقي السيوطي متولياً تلك الوظائف كلها حتى ناهز الأربعين من
عمره ، ثم انتقل عنها إلى مشيخة الخانقاه البيبرسية سنة ١٤٨٦م ،
وهي أكبر خوانق القاهرة وأوسعها[١] أوقافاً في عصره ،
وصاحب الفضل في تعيينه عليها الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز
العباسي . ومن ثمّ انقطع السيوطي عن التدريس والإفتاء والإملاء
والإسماع ، وأخذ في التجرّد للعبادة كما قال الشعراني ، أو أنه
انجمع وتشيخ على قول السخاوي . وشرع السيوطي منذئذ
في تحرير مؤلفاته ، وربما ألهاه التكاثر عن الإتقان ، فلم يمعن
في بعض الأحيان ، بل جرى قلمه بالتأليف السريع حتى أربت
كتبه على الخمسمائة ، سوى ما غسله ورجع عنه ، ولذا جاءت أكثر
مؤلفاته[٢] جمعاً لا تأليفاً .

وهال المعاصرين والمتأخرين والمحدثين أن ينسب ذلك العدد
الجمّ من الكتب إلى مؤلف واحد ، وفسره السخاوي بأن
السيوطي اختلس كثيراً من تصانيف ابن تيمية وابن حجر
والسخاوي وغيره ، من مجموعة عُثر عليها كلها بمكتبة المدرسة

---

(١) المقريزي (المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ٢ ، ص ٤١٦) .

(٢) لم تقتصر كثرة المؤلفات على السيوطي وأشباهه من المؤلفين المسلمين ، بل صدقت تلك الظاهرة كذلك على بعض المؤلفين الغربيين في العصور الوسطى ، ومثال ذلك رامون لول الإسباني ، إذ بلغت مؤلفاته خمسمائة . انظر (Alison Peers : St. John of the Cross. p. 61)

المحمودية ، وأنه عدّل فيها يسيراً ، وقدّم وأخّر ، ونسبها لنفسه بعد أن هوّل فى مقدّماتها .

غير أنه مهما قيل فى هذا الباب ، فإن تهمة الاختلاس لا يمكن أن تنصبّ على جميع مؤلفات السيوطى ، بل لدينا من حقيقة الحال العلمية فى عصره ، ومما يستطاع استنتاجه من نفسيته وعقليته وأخلاقه وأحواله ، ومن بساطة المسائل التى أفرد لها كثيراً من كتبه ، ومن أحجام تلك الكتب التى أدمجها فى تعداده الضخم ، مايساعد على تعليل ذلك التكثر الخارق فى التأليف تعليلا معقولا . ذلك أن عصر السيوطى — وهو الحقبة الأخيرة من عهد المماليك عصر المستقلة — كان عصر الجمع والتلخيص والتكميل والشرح والحواشى ، وليس به فى الواقع من المؤلفات — فيما عدا الكتب التاريخية — ما يصح أن يوصف بغير ذلك من الصفات . ومثال ذلك من كتب السيوطى الكبرى كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى ، والمعروف أن السيوطى أنهاه فى أربعين يوماً ، وكتاب طبقات الحفاظ ، وهو تلخيص وتكملة للذهبى ، وكتاب لب اللباب فى تحرير الأنساب ، وهو اختصار لعز الدين بن الأثير ، واستغرق السيوطى فى إنجازه عشرة أيام فقط . ثم أن السيوطى اعتقد فى نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق فى الحديث والفقه والعربية ، وأنه لو شاء أن يكتب فى كل مسألة مصنفا تامّاً لاستطاع كما تقدّم ،

وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة للهجرة ، وأنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام وخاطبه فى اليقظة والمنام خمسين مرة ، فتطلبت منه تلك الدعاوى أن يكتب كثيراً ليدعم أقواله . يضاف إلى ذلك أن السيوطى عاش غضوبا ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها فى يوم أو ليلة . ليردّ بها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه[1] . ومن الأمثلة الدالة على أثر ذلك كله فى عدد مؤلفات السيوطى كتاب إرشاد المهتدين فى نصرة المجتهدين ، وكتاب الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض ، وكتاب التنبئة عن يبعثه الله على رأس كل مائة ، وكتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف[2] ، وكتاب تنوير الحلك فى إمكان رؤية النبى والملك . ثم إنه دأب على التدخل فى

---

(١) قال السيوطى ، نقلا عن الشعرانى (ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٤) : " وخالفنى أهل عصرى فى خمسين مسألة ، فألفت فى كل مسألة مؤلفاً بينت فيه وجه الحق " ، وهذا عدا ما كتبه لتبرير موقفه من مسائل معينة كما سيلى . انظر كذلك ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) أشار السيوطى إلى مسألتى اجتهاده ومبعوثيته إشارات خفيفة فى كثير من مؤلفاته ، غير أنه خلع النقاب تماما فى هذا الكتاب ، إذ قال : " فإن ثم من ينفخ أشداقه ويدعى مناظرتى ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضنى ويستجيش علىّ بمن لو اجتمع هو وهم فى صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباء منثوراً . (راجع مقدمة الدكتور فيليب حتى لكتاب نظم العقيان ، صفحة ش — ص) .

المسائل العامة فى عصره ، ومثل ذلك قيامه فى مسألة ابن الفارض سنة ١٤٧٠ م ، وكتابته فى ذلك مقامة اسمها قمع المعارض فى نصرة[١] ابن الفارض ، وإفتاؤه من غير تفويض بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة ، لأن الإجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية ، وله فى ذلك " كتاب " كذلك . ثم إن السيوطى أحب التسلى بالكتابة فى موضوعات واهية تافهة ، ومثل ذلك كتاب الإسفار عن قلم الأظفار ، وكتاب بلوغ المآرب فى قص الشارب ، وكتاب الوديك فى فضل الديك ، وكتاب مسألة ضربى زيداً قائماً ، وكثير من هذه لا يعدو كراسة أو ورقة أحيانا .

ومهما يكن فليس لجميع جولات السيوطى فى علوم عصره ومسائله الخاصة والعامة متسع كاف[٢] بهذه السطور ، إذ البحث محدود بعنوانه ، والتعريف فيه بالسيوطى قاصر على تقديره بين المؤرخين بمصر فى حقبة معينة ، فلا يجب أن تطغى كثرة القول فى غير ذلك من أشتات نشاطه على ما هنالك من غرض أصلى ، وهذا بالإضافة إلى أن مؤلفاته التاريخية ليست سوى شىء قليل

---

(١) انظر ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ ومجموعة مؤلفات السيوطى الصغرى ، بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ٩٨ مجاميع .

(٢) راجع السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

بالقياس إلى كتبه فى غير التاريخ من العلوم . ومن تلك المؤلفات التاريخية كتاب حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة ، فى جزءين ، وهو تاريخ للبلاد المصرية والقاهرة عاصمتها ، مع بعض فصول إضافية فى النظم المملوكية وأساليبها ، وطبقات العلماء والأصلاء والصوفية فى مصر ؛ وقد كتبه السيوطى فى عصر السلطان قايتباى ، واعتمد فى تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفاً عدّدها فى مقدمته . ومن مؤلفاته كذلك كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، وكتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباى ، وكتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وهو كتاب شعبى فى التاريخ العام ، وكتاب تاريخ أسيوط ، وكتاب كوكب الروضة ، وهو تاريخ لجزيرة الروضة جنوبى القاهرة ، ألفه السيوطى سنة ١٤٨٩ م ، ونقل فيه كثيراً مما كتب المقريزى فى هذا الموضوع ، وكتاب تاريخ العمر ، وهو ذيل على أنباء الغمر لابن حجر ، وكتاب المنتقى من تاريخ ابن عساكر ، وكتاب الشماريخ فى علم التاريخ ، وهو رسالة قصيرة فى أصل اتفاق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ للتاريخ الإسلامى ، وإجماعهم على اعتبار المحرم أول الشهور ، مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية . وللسيوطى عدا ذلك كتب كثيرة فى التراجم والطبقات ، ومنها كتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، وكتاب بغية الوعاة فى طبقات النحاة ، وكتاب الملتقط من الدرر الكامنة ، وهذا فضلا عن مؤلفاته فى سائر علوم عصره .

وقيل بحق إنّ السيوطى لم يكن مؤلّفاً فى معظم هذه الكتب التاريخية وغيرها ، بل إنه جمع فأوعى فقط ، واختصر ولخص فحسب ، وربما نسب لنفسه مؤلّفات لغيره ، كما قرّر السخاوى . على أنّ ذلك ليس بالقليل — أو الغريب — فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، ولم يسلم من تلك التهمة كلّ من المقريزى وأبى المحاسن ، وهما من أساطين المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى . ثم إنه ليس من النصفة فى شىء أن يقاس السيوطى وغيره بمقاييس اليوم ، بل إن فضل السيوطى فيما صنع على وجه العموم واضح — وإن جاء فضلاً مشوباً — إذ حفظ بتلك الطريقة كتباً مفقودة أصولها حتى الآن ، ولولا فعله لما وصل منها شىء للمتأخرين . ثم إن السيوطى وضّح بطريقته هذه حال العلوم والعلماء فى عصره ، ونفّق كتباً ظلّت بعيدة عن متناول الناس والعامة لندرتها أو ضخامتها ؛ وانتشرت تلك الكتب فى ثوبها المختصر إلى جميع البلاد الإسلامية ، من مراكش والتكرور إلى الهند واليمن ، وذاع معها صيت السيوطى ذيوعاً يشهد به وجود الكثير منها بخطه ، فى مختلف المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية القديمة ، ولا سيما بالهند .

ومما أعان السيوطى على التفرّغ لكتابة ما كتب من مؤلّفات ضخمة ورسائل صغيرة ، أنه ظل طويلا على مشيخة البيبرسية متمتعاً بوظيفتها الوافرة ، منذ تولاّها أواخر عهد قايتباى ،

وهذا على الرغم من قيام بعض أعدائه من القضاة وغيرهم بالوقيعة به عند ذلك السلطان الطيّب . غير أنه أغضب قايتباى آخر سنة من حكمه (١٤٩٥ م) ، بسبب طلوعه إلى حضرته فى مسألة وعلى رأسه الطيلسان ، مخالفاً بذلك بعض التقاليد المرعية ؛ ومع أنه عوتب على مخالفته ، فإنه أصر على صحة موقفه ، وكتب فى ذلك رسالة اسمها الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان . وامتنع السيوطى من بعد ذلك عن الطلوع إلى السلطان ، بل رفض أن يذهب مع العلماء لتهنئته بالشفاء من مرض ألمّ به ، محتجاً بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنّة ، وألّف فى ذلك كتابا سمّاه ما رواه الأساطين فى عدم المجىء إلى السلاطين[1] .

ومع هذا كلّه بقى السيوطى على وظيفته بالبيبرسية حتى وفاة قايتباى . غير أنه أفسح لأعدائه بمواقفه هذه سبيلاً إلى تأجيج النار عليه ببلاط السلطان الجديد ، وهو محمد بن قايتباى ؛ وكأنما أحسّ السيوطى بما سوف يناله قريباً من عزل عن وظيفته الرغيدة ، فحسّن للخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباسى سنة ١٤٩٦ م أن يولّيه قاضياً كبيراً على جميع القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الإسلامية المجاورة ، وأن يجعل بيده الولاية والعزل فيهم مطلقاً ، وهى وظيفة لم يحرزها قط فى العالم الإسلامى سوى القاضى تاج الدين ابن الأعز فى الدولة الأيوبية ، بعد أن صار لتلك الدولة سيادة

(١) الشعرانى : ذيل الطبقات الكبرى ، ص ١٩ — ٢٠ .

فعلية على جميع بلاد الشرق الأدنى . على أن السيوطى لم يفكّر فى تلك الوظيفة لتكون له مخرجاً من البيبرسية فحسب ، بل يظهر أنه أراد أن يستخدمها فى النيل من بعض أعدائه ، وربما رأى فيها تحقيقاً لما قال به من وجوب قيام الخلافة القطبية الباطنة فوق الخلافة العباسية الظاهرة[١] . ثم قامت القيامة بين القضاة والناس ، حين شاع أن الخليفة عهد إلى السيوطى بتلك الوظيفة ، وما زال القضاة بالخليفة حتى أشهدوا عليه بالرجوع عنها ، واعترف الملأ بأن السيوطى هو الذى اقترحها عليه[٢] .

ثم حدث فى سنة ١٤٩٧ م ، أن قطع السيوطى جَميلة الصوفية بالخانقاه البيبرسية ، بحجّة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا صوفيتهم ، فثار ثائرهم عليه ، وحملوه بأثوابه ورموه بفسقية الخانقاه ، وكادوا أن يقتلوه . وافترص أعداؤه تلك الفرصة ، ومنهم الأمير طومان باى الدوادار ، فحوكم السيوطى وثبت لدى قضاته أن طمعه أفسده ، وأن تفكيره فى الاستيلاء على دراهم الصوفية الفقراء جعله غير صالح للبقاء فى مشيخته ، ولذا عُزِل . واعتكف السيوطى من ثَمّ فى بيت له بجزيرة الروضة[٣] ، حتى

---

(١) انظر السيوطى : كتاب التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة . (دار الكتب المصرية ، رقم ٩٨ مجاميع) .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ؛ فيليب حتى : مقدمة نظم العقيان ، صفحة ر .

إنه لم يفتح شبابيكه المطلة على النيل مدّة ، وكتب فى ذلك رسالة اسمها تأخير الظلامة إلى يوم القيامة . على أن محنته لم تنته بتلك الحادثة ، إذ تسلطن طومان باى الدوادار سنة ١٥٠٠ م ، وخاف السيوطى بطشه ، فاختفى بجهة غير معلومة ، وظلّ مختفياً شهوراً حتى وفاة هـذا السلطان وتولية قانصوه الغورى بعـده أواخر تلك السنة . وعندئذ رجع السيوطى إلى بيته بالروضة[1] ، غير أنه فضّـل البقاء فى عزلته ، ولم يقبل أن يعود إلى الحياة العامة ، إذ عرض عليه الغورى وظيفة المشيخة بمدرسته ومدفنه بالقبة الزرقاء فرفض[2] ، وما زال على انزوائه حتى مات سنة ١٥٠٥ م . وللسيوطى قبر بأسيوط يزار ، ولـكنه مزوّر ، إذ المعروف أنه دفن بحوش الأمير قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة

أما عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فهو سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ، وأبوه الأمير المحدّث خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به ضمن معاصرى المقريزى من المؤرخين البارزين ، وأمه الأميرة أصيل أخت امرأة السلطان برسباى . ومولد عبد الباسط سنة ١٤٤٠ م ، بملطية بأطراف أسيا الصغرى ، حيث كان أبوه

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — بولاق — ج ٢ ، ص ٣٩١ .
(٢) الشعرانى : ذيل الطبقات الـكبرى ، ص ٢١ .

متولياً نيابتها من قبل السلطان جقمق ، وقضى طفولته وشبابه متنقلاً بين البلاد التي اتفق لأبيه الإقامة فيها موظفاً مرضياً عنه ، أو طارخاناً منسياً أو مغضوباً عليه ، مثل حلب والخليل والقدس ودمشق وبغداد والقاهرة ومكة وطرابلس ، فتلقى علوم عصره على شيوخ مختلفين ، ومنهم أبوه الذي أقرأه الكثير من الكتب في شتى العلوم ، كما علّمه اللغة التركية أيضاً .

وشغف عبد الباسط كأبيه بالتحصيل الواسع ، فذهب مثله إلى بلاد كثيرة من المغرب لم تعينها المراجع ، وتلقى هناك دروساً في النحو والكلام والطب حتى أتقنها . ثم استقرّ أخيراً بالقاهرة ، بعد وفاة أبيه خليل سنة ١٤٦٨ م ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوّف ، وتمرّف إلى السيوطي متولي مشيختها ، وإلى يونس الرومي المنطيق نزيلها ، وسمع كذلك على غيرهما من علماء القاهرة ، واعتبره السخاوي من تلاميذه في التاريخ .

واشتغل عبد الباسط بعد ذلك بالتأليف في مختلف العلوم والفنون ، ونظم ونثر ؛ غير أن المراجع لا تنبئ بشيء يدلّ على غير ذلك من عمل رسمي وُظّف عليه في الدولة المملوكية . ومن مؤلفاته المعروفة في التاريخ كتاب نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، وكتاب نيل الأمل ، وهو تكملة لتاريخ الذهبي ، وكتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم ، وهو ذيل لتاريخ أبي المحاسن المشهور ، وكتاب تاريخ الأنبياء الأكابر

وبيان أولى العزم منهم . وله عدا ذلك كتاب الوصلة فى مسألة القبلة ، وكتاب الحكمة والسر فى كون الوضوء ، وكتاب القول المأنوس ، وكتاب شرح القانونشة فى الطب ، وكتاب عمدة الطالبين ورغبة الراغبين فى الفقه . وهذه المؤلفات كلها لا تزال فى ظلمات المخطوطات ، بمختلف مكتبات الشرق والغرب ، ما عدا الكتاب الأخير منها فإنه مطبوع طبعاً سقيماً .

ولعبد الباسط فوق هذا نظم سبعثر فى كتب معاصريه ، ولا سيما ابن إياس الذى نعته بلفظ "شيخنا" فى تاريخه أكثر من مرة ، ولا بد أن مؤلفات عبد الباسط نفسها تحوى منه كثيراً . ومن ذلك النظم أبيات فى مناسبات شتى : مثل وفاء النيل بعد توقف طويل سنة ١٤٩٣ م ، ومرثية فى وفاة السيوطى سنة ١٥٠٥ م ، وفى هذين المثلين وغيرهما دليل على أن عبد الباسط عاش كابن إياس — وأبى المحاسن كذلك — بين رجال الأدب المتقلبين فى هامش البلاط السلطانى ومجتمعات الخاصة فى دولة المماليك . والواقع أن عبد الباسط مشابه لابن إياس فى كثير من الوجوه ، فكلاهما ابن أمير مملوكى ومن أولاد الناس على قول مصطلح العصر ، وكلاهما مؤرخ وشاعر . على أن عبد الباسط امتاز عن صنوه المؤرخ بأنه ألف فى غير التاريخ من علوم زمنه ، كما امتاز على سائر أصدقائه ومعاصريه من أهل القلم بأن ما لدينا من نماذج نظمه خلو من التهانى والمديح ، بل يدل على أنه عاش متعزلاً مترفعاً ،

وجاء ما كتبه فيه كلٌّ من السخاوى وابن إياس مصداقا لذلك تماما ، إذ قال أولهما بأنه : " إنسان ساكن أصيل منجمع عن الناس " (١) ، ووصفه ثانيهما وصفاً قلمياً دقيقاً تناول هيئته وبزته وأخلاقه ، حين قال إنه " كان صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يرخى ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافرجداً . . . وكان . . . . . ضنيناً بنفسه ، وعنده بيس طباع مع شمم زايد ، وكان معظما عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية ، وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف (٢) "

وتوفى عبد الباسط سنة ١٥١٤ م ، بعد مرضه بالسل مرضاً ألزمه داره أكثر من سنة ؛ ويلاحظ أن وفاته حدثت والمائة العاشرة للهجرة كرّت من أعوامها عشرينا ، أى أنه كان من رجال القرن العاشر بقدر ما هو من أهل القرن التاسع ، ومثله وأكثر منه فى هذه الخضرمة حسن بن الطولونى ، وغيره من مؤرخى تلك السنين من تاريخ المماليك .

وُلد حسن بن حسين الطولونى سنة ١٤٣٢ م من أسرة يرجع أصلها إلى زمن الدولة الأيوبية ترجيحاً ، واشتغل كثير من أبناء تلك الأسرة بالهندسة والمعمار ، فكان منهم غالباً " معلم

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن إياس . بدائع الزهور — طبعة استانبول — ج ٤ ص ٣٧٤ .

المعلمين[1] " ، وهو كبير المهندسين فى مصطلح الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ، وعليه المعوّل فى المآثر السلطانية . واستقام الحظ المادى تماما لتلك الأسرة أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، حين تزوّج السلطان برقوق من أخت معلم المعلمين أحمد ابن الطولونى ، ثم من ابنته بعد طلاق عمتها . وأحمد هذا جدّ حسن بن الطولونى ، فلما جعله السلطان برقوق من أمراء المماليك برتبة أمير عشرة ، تزيّا بزىّ الأتراك ، وصار بذلك إنساناً ناجحاً ، وظلّ على إمرته ووظيفته حتى وفاته سنة ١٣٩٨ م ، وهى السنة التى مات فيها برقوق .

نشأ حسن بن الطولونى على مهنة آبائه ، ودرج فى عزهم وجاههم[2] ، مع ميل إلى الفقه والتاريخ والأدب والغناء والفروسية ، وهو ممن عدّهم السخاوى من تلاميذه فى التاريخ ، ويظهر أنه اشتغل بوظيفة معمارية صغيرة فى أول أمره . ثم وقعت الفتنة التى أدت إلى اعتلاء السلطان إينال عرش الدولة المملوكية سنة ١٤٥٣ م ، وعمل فيها حسن بن الطولونى بأن أشرف

---

(١) وردت هذه الوظيفة باسم معلم المعمارية فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٢٧) ، وباسم معلم السلطان كذلك فى نفس المرجع (ج ٧ ، ص ٧٠٤) .

(٢) ليس فى المراجع التى اعتمد عليها كاتب هذه السطور ما يدل على شىء ألبتة بصدد حسين أبى حسن بن الطولونى صاحب الترجمة هنا ، وربما كان كذلك من رجال المعمار .

على حصار قلعة الجبل حتى سلّمت ، فجازاه إينال بأن عيّنه على وظيفتى معلم المعلمين وإمارة المحمل . وشغل المعلم حسن الوظيفة الأولى من هاتين الوظيفتين سبعة عشر عاما ، تخللتها عهود السلاطين إينال وابنه أحمد وخشقدم ويلباى وتمربغا وقايتباى حتى سنة ١٤٦٩ م ، فعزل عنها سنة ذاك لسبب لم تذكره المراجع . ثم أعاده السلطان قايتباى إلى تلك الوظيفة بسفارة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، فقام على عمائر السلطان خير قيام ، ومنها جامع الروضة المعروف بالمقسى على شاطئ النيل ، وهو الجامع الذى تم بناؤه سنة ١٤٩٠ م ، وأفتى بسببه السيوطى نكاية فى قايتباى بأن الإجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية .

وظلّ ابن الطولونى متمتعا برضى السلطان قايتباى ، وحظى عنده حتى أصبح وسيلة الناس لديه ، وسكن الروضة حيث الجامع السلطانى ، وأقام به الوقدات الحافلة ليلة الرابع عشر من كلّ شهر ، وأحضر لذلك قراء القاهرة ومؤذنيها ووعاظها ، ليشبع بهم حبّه فى أنغام القراءة والأذان والوعظ . وحجّ ابن الطولونى سنة ١٤٩٢ م موسميا ، ورافقه السخاوى فى ركب ذاك العام ، فرأى من خير معلم المعلمين وإحسانه وحسن هيئته ما لم يجد له نظيراً بين حاجّ تلك السنة . ثم توفى السلطان قايتباى سنة ١٤٩٥ م ، فظلّ ابن الطولونى على وظيفته ، بل ولاّه السلطان محمد بن قايتباى نيابة

القلعة كذلك ، فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحصين القلعة تحصيناً عظيماً أثناء فتنة الأمير قانصوه خمسمائة .

ولابن الطولونى فى التاريخ كتاب النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية ، وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الإسلام ، وينتهى بحوادث السلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك بمصر ، والراجح أن له كتاباً ثانيا فى التاريخ على صورة المذكرات أو اليوميات ، غير أنه لا يوجد ما يدلّ عليه حتى العصر الحاضر سوى قول ابن إياس فى ترجمة ابن الطولونى بأنه " أنشأ تاريخاً لضبط الوقائع " (١) ، وأكبر الظن أنه مدفون فى مجموعة من المجموعات الخطية التى تملأ مكتبات العالم ؛ ولابن الطولونى عدا ذلك شرح مقدمة أبى الليث والأجرومية .

وعاش ابن الطولونى حتى سنة ١٥١٧ م ، أى أنه أدرك الفتح العثمانى لمصر والشام ؛ غير أنه عمى قبل ذلك بمدة طويلة ، وعزل عن وظيفته المعمارية ، واستقرّ فيها بعده ابنه شهاب الدين أحمد : ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين (المهندسين) والصناع الذين حملهم السلطان سليم الأول العثمانى من القاهرة إلى إسطنبول ، ليقوموا له هناك بمثل ما رآه بعاصمة المماليك من المبانى والعمائر ، ثم رجع مع الراجعين من المصريين حنيناً إلى القاهرة بإذن السلطان العثمانى .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة بولاق — ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولابن إياس ثبت يستغرق أربع صفحات كاملة من تاريخه الكبير ، فيه أسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين ذهبوا إلى استنبول ثم رجعوا عنها إلى القاهرة بعد قليل ، وفيه أسماء غيرهم من الشخصيات الكبرى والصغرى ، وأولهم الخليفة المتوكل العباسى . وليت ابن إياس ذكر من ضمن أولئك وهؤلاء أحمد ابن زنبل المحلى الرمال . رابع معاصريه من المؤرخين فى مصر ، أو أورد بشأنه خبراً واحداً ، فإن المراجع المعروفة لا تكاد تنبئ بشىء عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثمانى فى وقت ما ، وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التى أنهت دولة المماليك بمصر والشام ، وأنه حضر جنازة طومان باى آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثمانى .

ولابن زنبل كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة ، وهو سجل وافٍ لحوادث الفتح العثمانى ، من يوم خروج السلطان قانصوه الغورى من القاهرة لملاقاة العثمانيين بشمال الشام ، إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول مظفراً إلى إسطنبول . ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كُتبت نسخة — أو نسخ — شعبية ما برحت تسلية المقاهى بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادى ؛ وترجمه السهيلى إلى التركية فى القرن

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور — طبعة إسطنبول — ج ٥ ، ص ٢٢٤ — ٢٢٨ .

السابع عشر، ضمن كتاب له اسمه الدرة اليتيمة فى تاريخ مصر القديمة ؛ واعتمد عليه مارسيل (Marcel)، أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر، فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ مصر الإسلامية، ولا يزال مرجعاً من الدرجة الأولى حتى الآن. وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة والخاصة، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعاً رديئاً، ورعا عُنى به المعنيون بالتاريخ المصرى قريباً، لتكون منه نسخة منشورة نشراً نهائياً مقارناً، يطمئن إليها المؤرخون اطمئنانا علميا.

ولابن زنبل عدا ذلك من المؤلفات كتاب فى التاريخ باللغة التركية، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين فى زمنه، وكتاب تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والفرائب، وهو فى الجغرافية، وكتاب المقالات فى حل المشكلات، وهو فى علم الخط والرمل والتنجيم، وكلها مخطوط مهمل إهمالا تاما. والمعروف كذلك من أخبار ابن زنبل أنه بقى حياً يرزق من وظيفة بديوان الجيش العثمانى سنة ١٥٤٤ م، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبى قير الحالية قرب الإسكندرية، وأنه توفى بعد سنة ١٥٥٢ م.

وإذا كان ما لدينا من أخبار ابن زنبل الرمال لا يكفى لكتابة ترجمة متصلة الحقائق شافية، فإن المراجع تضفى بأخبار محمد بن طولون الدمشقى آخر معاصرى ابن إياس من المؤرخين،

فضلا عن ترجمة ذاتية[1] كتبها هذا المؤرخ لنفسه تقليداً للسابقين من المعاصرين والمتقدمين كالسيوطى ، وهى فى أربع وخمسين صفحة من القطع الصغير ، لا يخرج القارئ منها بشىء كثير ، خلاصته أن ابن طولون وُلِد سنة ١٤٧٥ م بصالحية دمشق ، وأن أمه أزدان الرومية توفيت وهو فى سن الطفولة الأولى . وتعلم ابن طولون على شيوخ دمشق ، ومنهم عمه القاضى جمال الدين يوسف الحنفى مفتى دار العدل بها ، والمؤرخ الدمشقى محيي الدين النعيمى ، والمحدث جمال الدين ابن المبرد ؛ ثم رحل ابن طولون فى طلب العلم إلى مكة سنة ١٥١٤ م ، فسمع بها على الحافظ عز الدين بن فهد ، وأجازه السيوطى إجازة بالمكاتبة من القاهرة .

وقرر ابن طولون فى ترجمته الذاتية أن عدّة شيوخه بلغت خمسمائة ، وأن العلوم التى اشتغل بتحصيلها تزيد على اثنين وسبعين علماً ، ومنها الحديث والكلام والأصول ، والنحو والصرف والمنطق ، والطب والهيئة والهندسة ، والمعانى والبديع والحساب ، والفرائض والعروض والفلك ، والميقات واللغة والتاريخ ، والفقه والتصوف والتفسير . وأجازه مشايخه فى بعض هذه العلوم

---

(١) اسم هذه الترجمة الذاتية الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون ، وهى مطبوعة بدار مكتبة القدسى والبدير بدمشق ، سنة ١٣٤٨ هـ .

الإجازة والإجازتين والثلاث ؛ ولذا جاء ابن الطولونى كالسيوطى تماما من حيث مشايخه وعلومه وبراعاته العلمية وسماعاته ، بل أصاب المرحوم تيمور باشا حينما وصفه بأنه سيوطى الشام .

والواقع أن الشبه بين الرجلين يتعدّى إلى مؤلفاتهما وأنواعها وقيمتها كذلك ، بل تزيد مؤلفات ابن طولون الدمشقى كثيراً عن مؤلفات صاحبه المصرى ، وهى واردة فى ترجمته الذاتية — وفى غيرها من المراجع — فى عدة صفحات بترتيب أبجدى لكثرتها . ومن هذه فى التاريخ كتاب غير معروف العنوان على التحقيق ، ولا يوجد منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة طبعت[1] حديثاً ، ولعله كتاب عجب الدهر فى تذييل من ملك مصر ، أو كتاب نزهة الناظر فى معرفة الأواخر ، أو كتاب مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان . وكيفما كان الأمر ، فهذه القطعة من ذلك الكتاب المجهول هى التى أهّلت ابن طولون لأن يكون فى عداد المؤرخين الذين يُرجع إليهم فى كتابة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، لانفرادها بحقائق تاريخيـة هامة فى الفتح العثمانى وأسبابه وحوادثه ، واشتمالها على ما رآه مؤلفها من حوادث ذلك الفتح بدمشق ، مما لم يَرَه ابن إياس وهو بالقاهرة

---

(١) عثر المستشرق رتشارد هارتمان (Richard Hartmann) على هذه القطعة بمكتبة جامعة توبنجن (Tübingen) ، ونشرها سنة ١٩٢٦ تحت اسم (Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tūlūn.)

ولابن طولون فى التاريخ كذلك كتاب العقود اللؤلؤية فى الدولة الطولونية ، وكتاب حور العيون فى تاريخ ابن طولون ، وهو تلخيص مع زيادات لسيرة أحمد بن طولون للبلوى[1] المؤرخ المتوفى حول منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . وعثر ابن طولون على تلك السيرة فى دكان ورّاق ، فاشتراها وأهداها لخزانة المدرسة العمرية بحلبية دمشق ، وكتب عليها بخطه أنه ابتاعها بتسعة قروش ، وكل ذلك تقدير منه لمؤسس الدولة الطولونية الذى اعتبره جدّه الأعلى.

ولابن طولون كذلك فى التاريخ كتاب الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام ، وكتاب إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى ، كما أن له فى التراجم كتاب سلك الجمان فيما وقع لى من تراجم ملوك بنى عثمان ، وكتاب النطق المنبى فى ترجمة الشيخ المحيوى ابن العربى . وكتاب الاختيارات المرضية فى أخبار التقى ابن تيمية ، وكتاب التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والخلان ، وهو ذيل على تراجم البرهان البقاعى المعروف باسم عنوان الزمان ، وغير ذلك كثير فى مختلف العلوم والمواضيع والصناعات .

---

(١) نشر الأستاذ محمد كرد على بك هذه السيرة الطولونية حديثا من نسخة وحيدة وجدها بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وسدّ بنشره وتحقيقه هذا الكتاب ثغرة واسعة من ثغرات التاريخ المصرى أوائل العصور الوسطى .

واشتغل ابن طولون فوق ذلك بوظائف عديدة من تدريس وإقراء وإمامة وخطابة ، ومشارفة وفقاهة ومشيخة ، بمختلف معاهد دمشق وجوامعها وزواياها وخوانقها ، فكانت أوقاته معمورة تماما ؛ وظلّ على كثير من تلك الوظائف برغم ما جرى على دمشق من تغير الدولة بعد الفتح العثماني ، وتوفي سنة ١٥٤٥ م ، ولم يعقب أحداً .